DOI:10.52113/uj05/023-16/247-259 ISSN : 2072-6317(P) - 2572-5440(O)

جامعة المثنى / كلية التربية للعلوم الانسانية
مجلة اوروك للعلوم الانسانية
موقع المجلة: www.muthuruk.mu.edu.iq

الأخوّة العربية الإيرانية في إطار الحضارة الإسلامية

محمد علي آذرشب *

جامعة طهران / ايران

معلومات المقالة

تاريخ المقالة :

تاريخ الاستلام: 2022/12/18

تاريخ التعديل : -----

قبـول النشـر: 2023/2/23

متوفر على النت: 2023/2/27

الكلمات المفتاحية :

الأخوّة العربية الإيرانية ، إطار ، الحضارة الإسلامية .

الملخص

أن الثقافة الإسلامية هي وحدها القادرة على أن تحوّل دول الجوار إلى عمق استراتيجي للعالم العربي ودعامة لقضاياه، وأن تعيد الهويّة والحركة العلمية والتطورية إلى العالم الإسلامي، وتبعده عن الأزمات الداخلية وعن الارتكاس في الصغائر والتوافه بعد أن تضع أمامه المثل الأعلى الحق والأهداف الإنسانية الكبرى. وما لم تستعد الثقافة الإسلامية بمعناها الواسع وجودَها على الساحة فإن إنسان العالم الإسلامي سوف يبقى ضائعًا يبحث عن هويّته، وقد يصحب هذا البحث نوع من العشوائية والإفراط والتفريط إذا لم يكن ضمن خطّة مدروسة متعقّلة شاملة أصيلة معاصرة، وقد يفتح هذا البحث العشوائي المدفوع بشعور الضياع ثغرات لنفوذ أعداء هذه الثقافة فيزداد الطين بلة، ويتكرس التخلف، وبذلك تعمل المحاولات الإصلاحية المفتعلة إلى تعميق المأساة.

من هنا فإن عملية الإحياء الثقافي في والتواصل الثقافي في العالم العربي ودول الجوار الإسلامي عملية حياتية لإحلال الأمن والسلام لخلق نوع من التوازن في الساحة العالمية، ولتوجيه البشرية نحو مصلحة «الإنسان» في حياته المادية والمعنوية.

©جميع الحقوق محفوظة لدى جامعة المثنى 2023

المقدمـة:

دور الإسلام في التفعيل الحضاري

نزل الوحي في بيئة كان مَثَلُها الأعلى القيم القبلية بما فيها من سلبيات وإيجابيات، ولم يكن في هذا المثل الأعلى ما يجعل الإنسان العربي يعيش خارج هموم ذاته وقبيلته.

وجاء الإسلام فوضع أمام الجماعة المسلمة مثلاً أعلى مطلقًا كلّه خير ورحمة وعلم وقدرة وعزة وكرم ودعا إلى السير نحو هذا المثل الأعلى. وكلّ دعوة إلى الله وعبادته والرجوع إليه والفرار إليه والكدح إليه، إنما هي دعوة إلى هذه المسيرة التكامليّة.

وقد يقال إن هذا الفهم لمعنى العبادة والسير إلى الله لم يكن قائمًا في ذهن العربي الذي رافق فجر الدعوة، غير أن واقع حركة الأمة في الصدر الأول يشهد أنها خرجت من إطار ذاتياتها الفردّية والقبليّة، وأصبحت تحمل رسالة الدعوة إلى عبادة الله الواحد الأحد والتخلّص من عبادة الأوثان كلّها، وتحرير الإنسان من عبودية الطاغوت، والدفاع عن المظلومين والمستضعفين.. والنصوص القرآنية التي تركّز على هذه الآفاق من الدعوة كثيرة، من هنا فإن الجماعة البشريّة التي خوطبت بالدعوة الأولى تغيّر مثلُها الأعلى تغيرًا تامًا، فبعد أن كان الدفاع عن القبيلة ومكانتها أبعدُ مطمح لهذا الإنسان لأفراد القبائل الأخرى، صار مطمح هذا الإنسان أن يُخرج الناس من ضيق الدنيا إلى سعتها ومن عبادة الطاغوت إلى عبادة الله الواحد الأحد، ومن ظلمات الجهل والخرافة والأوهام إلى نور العلم والحكمة والرُّشد والتفكير، ومن جور الطغاة والمستكبرين إلى العدل والرحمة والمساواة.

هذه الحقيقة تؤيدها حركة تاريخ الأمة الإسلامية بعد ظهور الإسلام كما تؤيدها كثير من النصوص المقدسة في القرآن

*الناشر الرئيسي : E-mail : Mohamed_Ali @gmail.com

والسنة وغيرها من النصوص التي وردت على لسان حملة الرسالة في صدرها الأول.

دور الإسلام في التفعيل الثقافي

دخول مجموعتين بشريتين في مشروع حضاري واحد يستتبعه تفعيل ثقافي بالضرورة، لأن المجموعة البشرية . حين تَخرج من ذاتياتها الضيقة، وحين تزول من أمام مسيرتها المثل العليا السرابية .تسلك طريق المثل الأعلى الحقّ. وهذا المثل الأعلى يفجّر في الإنسان طاقاته الخلاّقة ويدفعُهُ إلى حركة لا نهاية لها في عملية الهدم والبناء، هدم ما يعيق مسيرة التكامل الإنساني من عوائق، وبناء ما ينفع الناس.

ثم إنّ الإسلام قدّم للمجموعة البشرية تصوّرًا عن الإنسان تجعله يشعر بأنه محور الكون، ومحور التشريع الإلهي، وأنه يحمل الأمانة الكبرى.. ولابدّ أن يؤدّي هذه الأمانة بتحمّل مسؤولياته أمام ما أودعت فيه من قوى عقلية وفكريّة تمنحه قدرة الإبداع والتطوير.

وهذا التصور يمنح الإنسان ثقةً بنفسه وبإمكانياته وطاقاته وقدرته على الخلق والابتكار والإبداع.

وهذه الأمة تشكّلت في فترة زمنية قصيرة بفضل عظمة مثلها الأعلى، وتحركت بسرعة على طريق بناء الخير وهدم الشر في الساحة البشرية ولذلك كانت خير أمّة أخرجت للناس: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ...﴾(آل عمران/ 110).

وبسرعة مذهلة أيضًا تتناسب مع عظمة الأهداف تطورت، في داخل هذه الأمة، ثقافة هي مزيج مما كان عند العرب من خصال حسنة ومن تعاليم جديدة دفعت إنسان الجزيرة العربية إلى الحياة الحضرية وحرّمت عليه أن يعود إلى البداوة، فكان «التعرّب بعد الهجرة» من الكبائر، ووفّرت له ما تتطلبه الحياة الحضريّة من نظام سياسي واقتصادي واجتماعي ودفاعي.

ولعل أهمّ محاور التفعيل الثقافي في التصوّر الإسلامي الانفتاح على الشعوب الأخرى والتعرّف على ما كسبته في مسيرتها الحياتية التاريخيّة من تجارب وأخذ النافع منها المتناسب مع المنظومة الفكرية والعملية الإسلامية.

والشعوب تختلف في مكتسباتها الحياتية باختلاف ظروفها التاريخية والاجتماعية وطبيعتها القومية والجغرافية، بل إن الاختلاف موجود داخل المجموعة البشرية الواحدة، والاختلاف بين الأفراد والجماعات أقرّه الإسلام، بل وجعل هذه التعددية من الأهمية بحيث تستطيع أن تفسّر سبب خلق الناس، لأنها ترتبط بما يتصف به الموجود البشري من إرادة تجعله فريدًا في هذا الكون: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾ (هود/ 118).

إلى جانب إقرار الإسلام بالتعدّدية دعا إلى أن تتعارف المجموعات البشرية: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ (الحجرات/ 13).

وكما أن تعارف الذكر والأنثى لا يلغي صفة كل منهما؛ بل يجعل من تعارفهما أساس استمرار الحياة البشرية، كذلك تعارف الشعوب والقبائل أو تعارف الثقافات يؤدّي إلى استمرار الحركة الثقافيّة ومواصلة مسيرتها ونمائها.

الموقفُ الإنساني من الآخر

الدعوة الإسلامية موجهة إلى «الناس» والدعوة إلى التعارف موجهة إلى «الناس» والخطاب إلى أتباع الأديان الإلهية الأخرى يدعوهم إلى المشتركات: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ ...﴾ (آل عمران/64)، وأسلوب الخطاب مع الآخر يجب أن يكون ﴿...الْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ﴾ (النحل/ 125). وأن يكون بأفضل أساليب الإقناع: ﴿... وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ...﴾(النحل/ 125)، ولا يجوز اتخاذ موقف رافض في الحوار مع الآخر: ... ﴿ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدىً أَوْ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ﴾ (سبأ/ 24)... وهذه وعشرات النصوص الأخرى تؤكد ضرورة تعامل

DOI:10.52113/uj05/023-16/247-259

الإنسان المسلم مع الآخر تعاملاً فيه شعور بالأخوّة والمحبّة والاحترام، فالإنسان موجود كرمه الله: ﴿ولقد كرَّمنا بني...﴾ (الإسراء/ 70). وكل البشر يشتركون في «الفطرة» التي تجعل الناس بأجمعهم أمام أهداف إنسانية سامية، وتخلق بينهم المشترك الحضاري، ولا أضرّ على الساحة الإنسانية ممّن يحملون روح الحقد والخصام رغم تظاهرهم بالشعارات البرّاقة، ويعيثون – متى ماتوفرت لهم القدرة – في الأرض الفساد، ويهلكون الحرث والنسل، أي يعتدون على نعم الله في الأرض وعلى كرامة البشرية، ولا يمكن أن تدخل البشرية في سلم إلاّ إذا أبعدت عن طريقها الحاقدين المخاصمين، وما أجمل تسلسل الآيات في قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ، وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الأرض لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الْفَسَادَ، وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ، وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَؤُوفٌ بِالْعِبَادِ، يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ (البقرة/ 204 – 208).

فالبشرية مدعوّة إلى الدخول في السلم، وإلى التعامل الذي يحوّل العدوّ إلى وليّ حميم، لكنّ مشكلتها تبقى مع المنافقين الذين يظهرون مالا يبطنون من الحقد، ويصّرون على عنادهم ولجاجهم، وتأخذهم العزّة بالإثم. وهذه هي مشكلة التعايش الآمن بين البشرية في الماضي وفي حاضرنا الراهن وفي المستقبل.

وهذا الذي ﴿يُعجبك قولهُ في الحياة الدُّنيا﴾(البقرة/ 204) مزودّ اليوم بوسائل إعلام ضخمة وأساليب دعاية مدروسة تجعل «قوله» ينطلي على الشعوب المضلّلة، وهذا أكبر تهديد للأمن والسلام في العالم، لكنّ الأملَ في تقدّم وعي الشعوب تقدّمًا يجعلها تميّز بين الحقّ والباطل، وبين من هو ألدّ الخصام، ومن يشري نفسه ابتغاء مرضاة الله، أي يقدّم كل ما عنده لمسيرة البشرية نحو كمالها المنشود. وهو أمل يقوم على أساس الإيمان بأن مسيرة البشرية تطوي سلّم الكمال رغم تعثّرها وتراجعها في مقاطع من هذا الطريق الطويل.

والإسلام دعا إلى الجهاد بالمال والسلاح والكلمة، من أجل الناس..، وفي سبيل الله لا تعني إلا في سبيل الناس.. فالله لا يناله ثمرة إنفاق المنفقين ولا نتائج جهاد المجاهدين، ولا فائدة دعوة الداعين. بل الذي ينتفع من كل ذلك هو الناس. وأقصى نِعَم الله على الناس هو أن «يبدلهم من بعد خوفهم آمنًا» ولذلك يذكّر المسلمين الأوائل بقوله: ﴿... وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا ...﴾ (آل عمران/ 103). وهذه النعمة لا تتوفر إلا بتخليص البشرية من ظلم الظالمين واستضعاف المستكبرين: ﴿وَمَا لَكُمْ لا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا﴾ (النساء/ 75).

من صور التفاعل الحضاري

1- في فجر الإسلام

كان الفتح الإسلامي للإمبراطورية الفارسية مدهشًا حقًا في تعامله الثقافي، ويحتاج إلى توفية حقّه بدراسات مستفيضة.

لقد واجه الفاتحون أرضًا تختلف عنهم في الثقافة: أي في العادات والتقاليد واللغة والطقوس الدينية والتجربة الحياتية في السياسة والحكم والعلاقات الاجتماعية والاقتصادية.

كل توجه ثقافي في هذه الإمبراطورية العريقة لا ينسجم مع الدعوة الحضاريّة الجديدة قد انهار بسرعة تلقائيًا، لسبب بسيط هو أن هذه الحضارة الجديدة تنسجم مع الفطرة الإنسانية، ولعلّ أبسط مثال على هذا التحول الثقافي سقوط قدسية الإمبراطور. هذه القدسية التي عبّأت الدولة الساسانية إمكانياتها الدينية والثقافية لترسيخها في نفوس الإيرانيين. فقد فرّ يزدجرد آخر الأكاسرة الإيرانيين من عرشه متنقلاً بين المدن الإيرانية فلم يؤوه

DOI:10.52113/uj05/023-16/247-259

أحد، وظلّ هائمًا على وجهه حتى قُتل؛ وانهار فجأة أيضًا نظام التمييز الطبقي المقدّس الذي كان يحرّم التعليم على عامة الناس ويحصره بطبقة ممتازة.. وأمثال ذلك كثير، مما يدلّ على تحوّل ثقافي مفاجئ في إيران بعد المشروع الحضاري الجديد. غير أن هناك من أراد أن يحافظ على طقوسه الدينية الزرادشتيّة فلم ينظر الإسلام إلى اختلافه مع هذه الديانة؛ بل إلى مشتركاته معها، فاعتبر الزرادشتيين أهل كتاب، ولم يتعرّض لهم، وظلّوا في معابدهم يمارسون طقوسهم منذ فجر الإسلام حتى يومنا هذا بكل حريّة.

أما التوجه الثقافي الذي لا يتعارض مع الحضارة الجديدة مثل اللغة وكثير من العادات والتقاليد والتجارب الحياتية والمعرفيّة فقد وقفت منها الثقافة الإسلامية موقفًا إيجابيًا.. ظلّت اللغة الفارسية يتكلم بها الإيرانيون بل تعلّمها العرب على أثر اختلاطهم بالزواج والمعاشرة، باعتبارها لغتهم الأم[1]، وفتح الولاء بابًا عظيمًا للاندماج حتى ما عاد يعرف في كثير من الأحيان من ينتسب إلى القبيلة أهو انتساب بالولاء أم صليبة، وهو موقف إنساني عظيم قلّما نشهد له نظيرًا حتى في أكثر المناطق إدعاء بالأنسنة (Humanism).

والموقف الإنساني من الآخر الإيراني وصيانة عزّته وكرامته نجد لها الشواهد الكثيرة، مما تجعلنا مطمئنين إلى أن الفاتحين تعاملوا مع الإيرانيين ثقافيًا واجتماعيًا بصورة لم تجعل أهل البلاد المفتوحة يشعرون بأي امتهان لحقوقهم الإنسانية وعزتهم وكرامتهم وانتمائهم القومي.

ولعلّ أول مظهر لهذا التعامل الإنساني مع الآخر مبادرة الفاتحين إلى بناء الكوفة والبصرة في العراق لكي تكون موطنًا لهم وحتى لايزاحموا أهل البلاد المفتوحة من الإيرانيين (كانت عاصمة الساسانيين في العراق) وغيرهم من سكان تلك البلاد.

والجمع بين «القومي» و«الرسالي» من أروع ما قدّمه مشروع الثقافة الإسلامية، ومارسه عمليًا في الحياة الإسلامية مع العرب ومع غيرهم من القوميات الأخرى.

وهذا لا يعني طبعًا أن الذين تعاملوا مع الإيرانيين من العرب كانوا جميعًا رساليين، ولكن التوجّه العام في هذا التعامل كان رساليًا، رأى فيه الإيرانيون ما يلبّي نداء فطرتهم وما يحافظ على عزّتهم الفرديّة والقوميّة.

ولم تخل ساحة التعامل من ممارسات شاذة ارتكبها بعض الولاة وبعض أفراد القبائل المهاجرة، تنطوي على استعلاء قومي على أهل البلاد الأصليين، فتململ الإيرانيون، لكن الإمام علي(ع) أنقذ الموقف خاصة في عصر خلافته، حين نقل مقرّ الخلافة من المدينة إلى الكوفة ليكون إلى جانب الإيرانيين ومعهم، وليقدّم تجربة إسلامية إنسانية رائعة ألغت مرّة أخرى كلّ الامتيازات القبلية والقومية، وأعادت معيار التقوى بقوّة، وفرضت عدالة صارمة في التعامل الاجتماعي والقضائي والاقتصادي، وبذلك تفاعل الإيرانيون مع هذه التجربة، وترسّخت معالمها في أذهانهم، وجعلتهم ينشدونها حين ادلهمّت الخطوب في العصر الأموي، حيث سادت العصبيات القومية والقبلية، مما أدّى إلى تحرّك إيراني تحت راية الرضا من آل محمد لاستئصال شأفة الأمويين. وحادثة قدوم الجيوش الخراسانيّة إلى الشام وإنهاء الخلافة الأموية لها دلالات ثقافية عميقة، فهي تدلّ أوّل ما تدّل على أن روح الأنسنة كانت أقوى من عوامل التقديس التي أحاط الخليفة بها نفسه. فالأساس هو مصلحة الإنسان، ورفع الظلم عنه، والدفاع عن حقوقه، لا هذه الخلافة التي أضفت على نفسها طابع التقديس وأصبحت تحكم باسم الله دونما رقيب أو رادع.

وروح الأنسنة هذه هي العمق الثقافي للإسلام المحمّدي الذي تلقّاه الإيرانيون من خيار الصحابة الفاتحين، ومن تجربة خلافة عليّ ومن أبناء عليّ ودعاتهم في خراسان وسائر بلاد إيران.

2- في العصر العباسي

نعتقد أن إيران شهدت منذ الفتح الإسلامي حركة دائبة في حقل التداخل الثقافي والتفاعل الإبداعي. والوثائق . رغم قلتها . بسبب اهتمام المؤرخين بالجانب السياسي تشير إلى ظهور أدباء

DOI:10.52113/uj05/023-16/247-259

وشعراء ومترجمين ولغويين وعلماء إيرانيين في عصر الخلافة الراشدة والعصر الأموي، وتشير إلى تعاون الإيرانيين مع الحكومة الإسلامية في شؤون أدارة الدولة والدواوين. وكان أول ديوان للخراج (وزارة المالية) قد تأسس في زمن الخليفة الثاني عمر بن الخطاب (رض) على يد الإيرانيين، وظلّت السجلات تكتب بالفارسية، حتى عرّبها إيراني سنة 124هـ[2]. ونرى أكبر كتّاب العصر الأموي إيرانيًا هو عبدالحميد الكاتب الذي بلغ من الكتابة العربية شأوًا كبيرًا حتى قيل فيه أن الكتابة بُدئت به.

غير أن السياسة العامّة في العصر الأموي أضعفت هذا التفاعل أو غطّت عليه، فلم يكن ظاهرة ثقافية بارزة تستثير كُتّاب التذاكر والتواريخ لتدوينها. وبرز بكل طاقاته المكبوتة أو المقصاة في العصر العباسي.

والتداخل الثقافي الكبير في هذا العصر لا يرتبط بالدور الإيراني في الثورة العباسية بقدر ما يرتبط بطبيعة الثقافة الإسلامية من الآخر الثقافي، لأن هذا التفاعل كان قائمًا منذ الفتح كما ذكرنا، غير أن وجود الوزراء والولاة الإيرانيين في هذا العصر نشّط هذا التفاعل وغذّاه وهذه هي طبيعة ارتباط عملية المثاقفة بالجهاز الحاكم، وهذا هو الذي يدعونا أن نعقد الأمل اليوم على حكومات العالم الإسلامي كما نعقده على النخب المثقفة والعلماء والفنانين.

ومما يدل على مكانة التداخل الثقافي في هذا العصر بروز عدد من المترجمين الإيرانيين، بل بروز أسر عرفت بالترجمة وحظيت بمكانة رفيعة في المجتمع الإسلامي مثل نوبخت وعلى رأسهم الفضل بن نوبخت وأكثر ترجماته في الفلك، وآل سهل وعلى رأسهم الفضل بن سهل الذي ترجم في حداثته بعض الكتب واستوزره المأمون، وسهل بن هارون أحد خزنة بيت الحكمة، ومحمد بن جهم البرمكي، وزادويه بن شاهويه، وبهرام بن مردانشاه، وموسى بن عيسى الكسروي، وعمر بن الفرّخان، وروزبه بن داذويه (ابن المقفع).. فهؤلاء وغيرهم ترجموا كنوز الفرس إلى اللغة العربية، وما ترجموه إما أن يكون مؤلفًا بالفارسية أصلاً، أو مترجمًا من اليونانية إلى الفارسية على نحو ماهو معروف من نقل ابن المقفع لمنطق أرسطو.

«وللبرامكة فضل عظيم في إذكاء الترجمة حينئذ، فقد شجعوا بكل ما استطاعوا على نقل الذخائر النفيسة إلى العربية من الرومية واليونانية والفارسية والهندية»[3].

وأما بالنسبة للعلوم الإسلامية فإن «السواد الأعظم من الذين اشتغلوا بالعلم كانوا من الموالي، وخاصة الفرس»[4].

ومن الملاحظ في هذا العصر أن روح الانفتاح في الثقافة العربية الإسلامية عبّرت عن نفسها بمجالس الحوار التي جمعت الاتجاهات الفكرية المختلفة، للتباحث حول مختلف مجالات المعرفة. وكانت مجالس البرامكة عامرة بهذه المناظرات.

أما التداخل الثقافي في ساحة الأدب بين الإيرانيين والعرب فيشكّل معلمًا هامًا من معالم الانفتاح الثقافي، وهو تداخل ذو دلالة هامة لأن الأدب يعبر عن أعمق التجارب الشعورية للإنسان، والمثاقفة في هذه الساحة لها دلالات أعمق من التبادل الثقافي في المجال الفكري والعلمي.

وبلغ انفتاح الثقافة العربية الإسلامية على آداب اللغة الفارسية حدًا دعت الدكتور الشايب أن يقول:

«إن هذا النفوذ الفارسي السياسي يسّر للثقافة الفارسية أن تتسرّب إلى العقلية العربية الإسلامية عمومًا، أدبًا جديدًا ليس للعرب فيه إلا اللغة، وأما موضوعاته وفنونه وأساليبه وصوره، فقد أخذت تستحيل في ظل هذا السلطان الجديد، وصار الأدب أجنبيًا»[5]. ولنا على هذا الرأي بعض الملاحظات منها أن العامل السياسي كما ذكرنا كان أقل أهمية في هذه المثقافة من طبيعة الانفتاح في الثقافة العربية الإسلامية، وما كان للعامل السياسي إلاّ دور المنشّط لا المؤسس. ومن الملاحظات على رأي الدكتور الشايب قوله: صار الأدب أجنبيًا. ولم يُصبح كذلك، بل كان أدبًا عربيًا في لغته وأساليبه، ومزيجًا جديدًا ناتجًا من تفاعل الثقافتين العربية والفارسية في إطار الإسلام من حيث محتواه.

روح الانفتاح على الآخر كانت وراء ما فعله الأدباء العرب أمثال

DOI:10.52113/uj05/023-16/247-259

العتّابي كلثوم بن عمر التغلبي الذي أدّاه شغفه بالآداب الفارسية إلى الرحلة مرارًا إلى خزائن الكتب بمرو وخراسان ليتزوّد بكنوز الأدب الفارسي. وقد رآه شخص يومًا ينسخ بعض كتب الآداب الفارسية، فسأله متعجبًا: لِمَ تكتبُ كتبَ العجم؟ فأجابه مُنكرًا سؤاله: وهل المعاني والبلاغة إلا في كتب العجم؟ اللغة لنا، والمعاني لهم[6].

التداخل الثقافي العربي الإيراني نلاحظه أيضًا في التداخل اللغوي، فقد انكبّ الإيرانيون على اللغة العربية وتأثرت لغتهم بها أيّما تأثر، كما تعلّم العرب اللغة الفارسية وتمازجت اللغتان، وظهر ذوو اللسانين من المؤدبين والكتاب والشعراء والقصاصين.

ويروي الجاحظ عن قاص وواعظ بالبصرة هو **موسى الأسواري** يقول: «كان من أعاجيب الدنيا، كانت فصاحته بالفارسية في وزن فصاحته بالعربية، وكان يجلس في مجلسه المشهور به، فتقعد العرب عن يمينه والفُرس عن يساره، فيقرأ الآية من كتاب الله ويفسرها للعرب بالعربية، ثم يحوّل وجهه إلى الفرس فيفسّرها لهم بالفارسية، فلا يُدرى بأي لسان هو أبين»[7].

وكان كثير من العرب أنفسهم يتعلم الفارسية ويُحسنها، حتى لنراها تدور في مجالسهم. وكانت الفارسية تشيع على ألسنة الكثيرين في الحياة اليومية لبغداد والكوفة والبصرة، ودخل منها إلى العربية ألفاظ كثيرة، وخاصة ما اتصل بأسماء الأطعمة والأشربة والأدوية والملابس[8].

حول الشعوبية والزندقة والمجون والحركات الاستقلالية

يتناول بعض المعاصرين موضوع الشعوبية والزندقة والمجون في العصر العباسي باعتباره من مظاهر إعراض الإيرانيين عن الثقافة الإسلامية، وماهو كذلك.

بالنسبة للشعوبية في هذا العصر نعتقد أنها لم تكن تيارًا بل كانت ردود فعل بسيطة من بعض الإيرانيين تجاه مخلّفات تيار التعصب الأموي. ومن المؤكد أن تلك المخلّفات كانت موجودة في هذا العصر، بل استمرت على مرّ العصور إلى يومنا هذا. ولكنها في هذا العصر بالذات قد خفّت إلى حدّ كبير بسبب ما حظي به الإيرانيون من مكانة في المجتمع الإسلامي على الصعيد الرسمي والعلمي والثقافي. وصور التعايش الضخمة التي نشاهدها في هذا العصر بين العرب والإيرانيين تدل على عدم وجود تنافر قومي بينهما، لكن هذا لا يعني طبعًا. كما ذكرنا. زوال تلك المخلّفات، ولا يعني أن الإيرانيين لم يكن لهم ردّ فعل تجاه هذه الرواسب الجاهلية.

وردود الفعل لا تخلو عادة من إفراط بل أيضًا من خروج على قواعد الأخوّة الدينية وتعاليم الإسلام، وهذا ما نشاهده عند بعض الشعراء مثل بشار بن برد، وعند بعض الكتاب من أمثال علاّن الشعوبي.

وثمة مبالغات في إدخال الإيرانيين ضمن دائرة الشعوبية في هذا العصر، كأن يقال عن أبي يعقوب الخريمي بأنه شعوبي، ولم يكن كذلك بل كان يطلب التسوية بين العرب وبين غيرهم من الشعوب. ونفس الشيء يقال عن أبي نؤاس مع أن حديثه عن العرب كان ناشئًا عن «الاستمتاع باللذات.. وقد مضى يصوّر ذلك بدعوته إلى الانصراف عن الحياة المبتدية الخاشنة وما يتصل بها من بكاء الأطلال والوقوف برسوم الديار إلى الحياة الناعمة المترفة»[9].

وقد نجد من يحاول أن يضرم نار الصراع القومي بين المسلمين لغاية في نفسه، ولا يبعد أن يكون أبو عبيدة اللغوي الأخباري من هؤلاء، خاصة إذا عرفنا أنه طعن في شخص الرسول(ص)، وأن أصله من يهود فارس!

والمهم أن نعرف أن الذين تصدّوا للشعوبية كان بينهم إيرانيون[10]، وأن هذه الشعوبية كانت مقصترة على أفراد، بينما كانت العلاقة بين الإيرانيين والعرب في هذا العصر من أروع صور التمازج الشعبي والثقافي واللغوي والفكري والعاطفي في إطار الإسلام.

أما الزندقة فهي كلمة أطلقت بشكل عام على كلّ ملحد لا يؤمن بأصول الدين، وبسبب ترجمة الثقافات الأجنبية والنضج الحضاري نشطت الحركة الفكرية العقلية، وظهر في الحركة من

DOI:10.52113/uj05/023-16/247-259

أعلن ماديته وأنكر الخالق، مثل عبدالكريم بن أبي العوجاء، وناظره الإمام جعفر الصادق(ع)، وقُتل سنة 138هـ . ولكن جلّ أصحاب الحركة الفكرية العقلية كانوا من المؤمنين مثل شيوخ المعتزلة.

وفي قائمة المتّهمين بالزندقة في هذا العصر نجد إيرانيين وعربًا مثل: أبي شاكر الديصاني، وأبي نؤاس، وأبي مسلم الخراساني، وابن الراوندي، وابن مناذر، والبرامكة، والأفشين، وبشار بن برد، وحماد عجرد، وحماد بن الزبرقان، والحسين بن عبدالله بن عبيد الله بن العباس، وداود بن علي، وصالح بن عبد القدوس، وعبد الكريم بن أبي العوجاء، وعبدالله بن المقفع، وعلي بن الخليل، وعبدالله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر، ومطيع بن أياس، ويونس بن أبي فروة، ويحيى بن زياد، ويزيد بن الفيض، ويعقوب بن الفضل بن عبدالرحمن المطلبي، والوليد بن يزيد بن عبدالملك بن مروان[11].

ومؤرخو العصر العبّاسي صوّروا المهدي العبّاسي بطلاً في مكافحة الزنادقة، ادّعى أنّ جدّه العباس بن عبدالمطلب أمره في المنام بقتل الزنادقة، فقتل كثيرًا من الناس بهذه التهمة.

وفي أخبار المتّهمين بالزندقة ما يجعلنا نشكّك في زندقتهم، من هؤلاء بشار بن برد، فقد كان في بلاط الخليفة المهدي ومن سمّاره، حتى إذا هجا المهدي ووزيره يعقوب بن داود، أخذ بتهمة الزندقة وضرب حتى الموت.

ويظهر أن تهمة الزندقة كان وراءها غالبًا عامل سياسي أو حسد اجتماعي، أو منافسة في جاه ومكانة. يقول الأستاذ أحمد أمين في مقدمة كتاب ابن المقفع: «**فحيث ترى شخصية بارزة فَثَمّ ترى مِنَ الجامدين مَنْ يرميه بالزندقة والالحاد، وحيث ترى مفكّرًا قويًا يرمي إلى إصلاح اجتماعي خطير، فثم ترى أمامه أتهامًا بالخيانة وقلب نظام الدولة وما شئت من ألقاب. ومن أجل هذا كله أرى الاضطهاد والرمي بالزندقة في كثير من الأحيان رمزًا للشخصية أو النبوغ والعبقرية**»[12].

فالزندقة إذن لم تكن بالصورة التي رسمها مؤرخو العصر العبّاسي، لا في عدد الزنادقة ولا في إخلاص الحكام الذين تعقبوا الزنادقة[13]، كما أنها لم تكن شائعة بين الإيرانيين رغم أنها نسبت إلى بعض الإيرانيين المتظاهرين بالإسلام، أضف إلى ذلك أن الفقهاء الإيرانيين كانوا أشد من غيرهم على الزنادقة وعلى مواجهة فكرهم[14].

وبشأن المجون فإنه بدأ في التاريخ الإسلامي عندما اقتضت السياسة الأموية إيقاع أبناء المهاجرين والأنصار في اللهو ليشغلوهم عن المطالبة بالخلافة، فتدفقت الإماء الصناجات (العازفات) على المدينة المنورة وكانت أكثر بلاد المسلمين مخنثين ومغنين[15].

وكان ذلك الوضع مرفوضًا من قبل الصالحين عربًا كانوا أم إيرانيين، ولا بأس من الإشارة إلى أن فقهاء العراق وجُلّهم من الإيرانيين كانوا غير متسامحين في الغناء والمجون، يقول أحمد أمين: «حتى لقد كان فقهاء الحجاز أوسع صدرًا وأكثر تسامحًا في الغناء والمجون من أهل العراق. وقد رأينا قبلاً أنّ ما لأهل العراق من تشدّد في الدين كان وليد الفرس»[16].

أما بشأن الحركات الاستقلالية، فقد ذكرنا أن الإيرانيين كانوا ينظرون إلى دولة الخلافة الراشدة وخاصة إبان خلافة عليّ بأنها هي التي تمثل الإسلام الحقيقي لما لمسوه فيها من عدل ومساواة ومحافظة على القيم الإنسانية، وكلّما ازداد سخطهم على بني أمية وولاتهم ازداد حنينهم إلى نموذج ذلك الحكم، واستغلّ الثائرون ضدّ بني أمية هذه الروح لدى الإيرانيين فجنّدوهم في ثوراتهم. ثم استطاع أبو مسلم الخراساني أن يجنّد أكبر عدد منهم تحت شعار «الرضا من آل محمد». وتوجّه بهم إلى الشام فاستأصل شأفة الأمويين[17].

ويظهر من الوثائق التاريخية أن أبا مسلم الخراساني كان ذا شخصية قويّة قياديّة نافذة. فدخل في عواطف الإيرانيين وقلوبهم، وأصبح رمزًا لإنقاذهم من الظلم والطغيان وإعادة العدل العلوي وحكومة آل بيت رسول الله(ص) إليهم. لكن وثوب العباسيين على الحكم وسحقهم القيم الإنسانية من أجل

DOI:10.52113/uj05/023-16/247-259

السيطرة على الخلافة قد أصاب الإيرانيين بإحباط كبير، فلقد شاهدوا مقتل أبي مسلم على يد المنصور، ثم بطش الخليفة العباسي بأقاربه وبمن وطّدوا له الحكم، ونكبة البرامكة، واقتتال الأمين والمأمون، ومحاربة العلويين ومطاردتهم، كل ذلك أبعد الخلافة عن كلّ قدسية في أذهان الناس عامة والإيرانيين بشكل خاص، وتحوّلت المسألة الإسلامية إلى مسألة صراع مصلحي على الحكم والسيطرة، وكانت هذه الصدمة هي أيضًا كافية لأن تحدث ردّة عن الإسلام لولا وجود الدعاة والمصلحين بين الإيرانين وخاصة من آل بيت رسول الله(ص). وكان بإمكانهاإن تعبّئ جيشًا خراسانيًا آخر نحو عاصمة الخلافة العباسية لولا اهتمام الخلفاء العباسيين بإغداق الأموال والجوائز على وجوههم وقادتهم[18]، واستخدامهم في إدارة الجيش والحكم، والتظاهر بحب آل البيت مثل تولية المأمون الإمام عليّ بن موسى الرضا عهده، لكن هذا الاصطناع كله لم يمنع من ظهور حركات انتقام لمقتل أبي مسلم، ومحاولات انفصال عن الخلافة العباسية نشاهدها بكثرة ووضوح في عصر المأمون والمعتصم.

النصوص التاريخية تتحدث عن هذه الحركات بتحامل، وتنسب إليها عقائد منحرفة وأعمالاً مستهجنة، ومن المحتمل جدًا أن يكون في ذلك كثير من الافتراء، لأنها تقوم على أساس روايات السلطة العباسية الحاكمة. لكننا لا نستطيع أن نُنَزِّه هذه الحركات أيضًا، لأنها لم تكن موضع تأييد الصالحين من أبناء ذلك العصر.

بعد مقتل أبي مسلم تظهر فجأة جماعة الراوندية[19] نسبة إلى راوند القريبة من إصفهان، ويقال إن زعيمها الأبلق تكلّم بالغلو في علي والأئمة من ولده، ثم ظهرت جماعة المقنّعة في عهد الخليفة المهدي (158-169هـ). بخراسان، وتدعو إلى تقديس علي بن أبي طالب وأبي مسلم الخراساني كما يقول المؤرخون. وفي عصر المأمون ثار بابك الخرّمي[20] انتقامًا لأبي مسلم الخراساني واستمرت ثورته إلى زمان المعتصم. وفي بداية حكم المعتصم ثارت جماعة المحمّرة بالجبل، وكانوا على نهج الخرّمية.

ويلاحظ أن الخلفاء العباسيين استعانوا بقادة إيرانيين للقضاء على هذه الثورات. غير أن بعض هؤلاء القادة أنفسهم أحسّوا بأنهم يقاتلون في سبيل خليفة لا يحظى بأي قدسية ولا يستحق أية مكانة دينية، فحاولوا أن يستقلوا ببلدانهم عن الخلافة الإسلامية كما فعل عبدالله بن طاهر الذي استقل بخراسان وأسس الدولة الطاهرية فيها. غير أن بعض هؤلاء القادة أراد الإطاحة بالخلافة العباسية نحو ما فعل «المازيار» الذي لمع نجمه في أيام المأمون وتولّى قسمًا من طبرستان، ولكنه في أيام المعتصم ثار ضد الخلافة العباسية، ويقال أنه راسل بابك في هذا الأمر.

مثل مازيار «الأفشين»[21]، وهو من بلاد ما وراء النهر (خراسان الكبرى) قاد الجيوش في حرب عمورية، وأبلى بلاء حسنًا في حرب بابك الخرمي، لكن المعتصم شك في نوايه الاستقلالية فقتله شرّ قتلة بعد أن نسب إليه كل قبيح من العقائد والأعمال.

مما تقدّم لا يمكن أن نجد في ظاهرة الشعوبية والزندقة والمجون والحركات الاستقلالية ما يعبّر عن رغبة إيرانية في الإعراض عن الثقافة العربية الإسلاميّة، خاصة لو عرفنا أن هذه الثقافة ازدادت حيوية ونشاطًا ورسوخًا وعمقًا بعد أن نشأت في إيران دول مستقلة عن الخلافة العباسية كما سيأتي.

3- في عصر الدول والإمارات

الحديث عن الثقافة الإسلامية في إيران، بعد أن نشأت فيها دول وإمارات مستقلة عن الخلافة العبّاسية له أهميته الفائقة. فهذه الثقافة قد انتعشت أدبيًا وعلميًا بشكل واسع مما يدل على العمق الإنساني لهذه الثقافة في الوجدان الشعبي. فنجد دائرة الثقافة الإسلامية تتّخذ حواضر عديدة في إصفهان، والري، وغزنة، وبخارى، وشيراز، وهذا الانتعاش يدلّ بوضوح أن هذه الثقافة أصبحت لا تنفك عن هوية الإيرانيين وشعورهم القومي والثقافي والديني. حتى الدول التي اهتمت أكثر من غيرها بالجانب القومي الفارسي واللغة الفارسية والآداب الفارسية مثل الدولة السامانية في خراسان الكبرى وعاصمتها بخارى كانت تموج

DOI:10.52113/uj05/023-16/247-259

بالنشاط الثقافي الإسلامي العربي. يقول الثعالبي عن حاضرة السامانيين: «كانت بخارى في الدولة السامانية مثابة المجد وكعبة الملك ومجمع أفراد الزمان ومطلع نجوم أدباء الأرض وموسم فضلاء الدهر»[22].

ويستعرض الثعالبي في بخارى صورًا من مجالس أدبية ثقافية كانت تتعاطى الشعر العربي وعلوم اللغة العربية وآدابها. ونيشابور من بلدان الدولة السامانية كانت منارًا للثقافة العربية الإسلامية بمجالاتها العلمية والأدبية والثقافية. ولقد طلبتُ من أحد طلابي في قسم الدكتوراه أن يكتب رسالة في الشعر العربي بنيشابور، فتردّد ظانًا بأن المادة الموجودة لا ترتفع إلى مستوى كتابة رسالة عنها، فوجّهته إلى بعض المصادر، فجاء بعد مدّة ليقول: إن «زوزن» وحدها، وهي من قرى نيشابور، صالحة لأن تكتب فيها رسالة دكتوراه.

أما الدولة البويهية فكان عصرها بحق عصرًا ذهبيًا للثقافة العربية الإسلامية بشخصية عضد الدولة وبوزيريها عميد الملك والصاحب بن عباد وبمكتباتها ومجالسها الأدبية وشعرائها وأدبائها وعلمائها، يقول الثعالبي عن مجلس الصاحب بن عباد: «احتفّ به من نجوم الأرض وأفراد العصر، وأبناء الفضل وفرسان الشعر، من يُربي عددهم على شعراء الرشيد ولا يقصّرون عنهم في الأخذ برقاب القوافي ومِلْكِ رقّ المعاني..»[23].

«وانبرى ثلاثة إيرانيين ليواصلوا عمل أبي الفرج الإصفهاني في وضع تراجم للشعراء والأدباء هم الثعالبي في يتيمة الدهر والباخُرزي في دمية القصر والعماد الأصفهاني في خريدة القصر، وفي هذه الكتب الثلاثة أسماء مئات الشعراء والأدبا ولم يقتصر الأمر على الحواضر بل شاركتها مثل بلاد الجبل وجرجان وطبرستان وخوارزم وأهواز ونيشابور وهراة»[24].

والملفت للنظر أن الساحة الثقافية الإيرانية رغم استقلالها سياسيًا كانت متواصلة مع العالم العربي بشكل مدهش. ويكفي أن نذكر. على سبيل المثال. أنّ اهتمام إيران بشعر المتنبي لم يكن يقلّ عن اهتمام العالم العربي به والغريب أن المتنبي كان يُنشد الشعر في حلب ومصر والعراق فتصل قصائده بسرعة إلى إيران، وترددها الألسنة.

هذا على صعيد الأدب وهو صعيد . كما ذكرنا . يعبّر عن عمق التجربة الشعورية المشتركة للأمة. أمّا على الصعيد العلمي، فنرى ما يمكن أن نصفه انفجارًا علميًا في السعة والعمق. ونسجّل باختصار الملاحظات التالية على الجانب العلمي من الثقافة الإسلامية في إيران:

1. اقترنت الحركة الثقافية منذ العصر العبّاسي بحكّام مثقفين وعلماء يشجعون أهل الأدب والعلم، ويعقدون مجالس البحث والمناظرة، ويؤسسون المكتبات، فهناك علاقة جدلية بين هؤلاء الحكام وتطور الحالة الثقافية، الحالة تتطلب وجود هؤلاء، وهؤلاء يدفعون بعجلة التطور الثقافي.

وفي هذا العصر نرى بين الحكام في إيران أسماء ثقافية خالدة أمثال **عضد الدولة وابن العميد والصاحب بن عبّاد ونظام الملك**، ومن لم يكن منهم صاحب علم وثقافة حرص على أن يكون بلاطه مرتعًا للعلم والعلماء مثل محمود الغزنوي الذي أصرّ على طلب البيروني وابن سينا وأبي سهل المسيحي والطبيب ابن الخمّار والرياضي أبي نصر بن العرّاق، وكانوا جميعًا يعيشون في رعاية حاكم خوارزم فلبّى الطَلَب ابنُ العرّاق وابن الخمّار والبيروني، ورفضها أبو سهل، وكذلك ابن سينا الذي اتجه نحو قابوس بن وشمگير صاحب طبرستان وجرجان.

والغريب في هذا العصر أن الثقافة الإسلامية حوّلت العشائر الدموية المتوحّشة التي غزت إيران وحكمتها إلى حكام وأناس محبين للثقافة والمثقفين أو قلْ على الأقل يرون أن استمرار وجودهم يتطلب دعمًا وإسنادًا من أهل العلم والأدب في البلاد.

السلاجقة على سبيل المثال قبائل من أتراك الغُزّ والخزر لم يكن لهم من الثقافة حظ، لكنهم حين استولوا على إيران استوزروا العلماء والمثقفين، والمشهور منهم . كما ذكرنا . نظام الملك الذي اقترنت مدارس النظامية في بغداد وإصفهان وطوس وبلخ وهراة ونيشابور باسمه، ووفّروا للعلماء والأدباء جوًا جعل من عصر

DOI:10.52113/uj05/023-16/247-259

السلاجقة عصرًا علميًا أدبيًا باهرًا.

والمغول. مع كل وحشيتهم وفظاظتهم. هضمتهم الثقافة الإسلامية بعد حين من استيلائهم على إيران، وأصبحوا من رموز الحركة الثقافية. فهذا غازان (693 – 703) «أتاح لدولة الإيلخانيين في إيران والعراق عصرًا ذهبيًا، إذ اعتنق الإسلام وعمل على نشره بين المغول نشرًا واسعًا، وعُني بأن تصبح تبريز عاصمته من أجمل المدن الإسلامية، وقد بنى فيها رباطًا وبيمارستانًا ومدارس دينية ومرصدًا كبيرًا، ومكتبة فخمة، وأقام لأصحاب العلوم والفنون ضاحية مؤلفة من ثلاثين ألف بيت لعلماء الدين والفقهاء والمحدثين والقرّاء والأساتذة والطلاب».

ومن جوه حكّام المغول التيموريين حسين با يقرا (874-903هـ) وفي عهده أصبحت سمرقند مركزًا مهمًا من مراكز الثقافة الإسلامية.

وبعد القضاء على التيموريين فرّ آخر حكامهم سنة 906هـ إلى الهند وأسس هناك دولة المغول العظام، وهذه الدولة من مراتع الثقافة العربية الإسلامية وتحتاج إلى دراسة مستقلة.

2- ومن مظاهر الجانب العلمي في الثقافة العربية الإسلامية في هذا العصر بإيران تنوّع جوانب المعرفة تنوعًا غطّى احتياجات المجتمع المادية والمعنوية.

فالثقافة الفقهية لم تكن وقفًا على الفقهاء بل شارك فيها عامّة الناس، وهكذا الحديث النبوي فقد شاعت رواية الحديث والتثبّت فيه وظهرت محدّثات شهيرات مثل كريمة المروزية وقرأ عليها الخطيب البغدادي صحيح البخاري، وعائشة البوشنجية، وفاطمة الدقاق وعنها أخذ الحديث بنيشابور كثيرون[25].

برز في إيران خلال هذا العصر عالمان كبيران هما ابن سينا والبيروني، وكان لهما دور كبير في تطوير العلوم ودفعهم حبهم لاكتشاف المجهول أن يرموا ببصرهم إلى أقطار السموات محاولين اقتحام مجاهيلها. ويذكر الدوميلي في كتاب العلم عند العرب أسماء عشرات الفلكيين الإيرانيين الذين نقّحوا وصحّحوا كتب الفلك اليونانية وأضافوا إليها وطوّروا علم الهيئة والنجوم على نحو ما نراه عند أبي الفتح الأصفهاني، وأبي الحسين الصوفي، وعمر الخيام، ونصير الدين الطوسي، وقطب الدين الشيرازي وغيرهم كثير.

ونرى في هذا العصر الرياضيين والكيمياويين والجغرافيين والمتخصّصين في العلوم الطبيّة والطبيعة. ولذلك اتسعت العلوم وتطلبت المكتبة العربية إلى فهارس فتصدّى لهذه الغاية مَنْ قسَّمَ المؤلفات إلى علومها المختلفة على نحو ما نعرفه في كتاب الفهرست لابن النديم.

كما أن اتساع العلوم تطلّب ضبط مصطلحاتها على نحو ما تفعله المجامع العلمية اليوم، وممّا وصلنا من كتب في هذا العمل العلمي مفاتيح العلوم للخوارزمي، وكتاب التعريفات للشريف الجرجاني.

والملاحظ في هذا التنوع الثقافي أنه كان متوازنًا منسجمًا يهتم بالطب كاهتمامه باللغة، ويهتمّ بالكيمياء كاهتمامه بالنحو، ويهتم بالفلك كاهتمامه بالشعر، ليس فيه إفراط ولا تفريط، وما أبعد هذه الحالة الثقافية عن حالات يُصاب بها بعض مثقفينا المنفعلين الذين إذا انفتحوا على علم من علوم الغرب يتنكرون للغتهم وثقافتهم وآدابهم.

حركة اللغة والنحو والبلاغة والنقد في هذا العصر ازدهرت بإيران لتعبّر أكثر مما مضى عن ارتباطها بالهوية الثقافية الإسلامية. أكثر معاجم اللغة العربية الهامة ألفت أو نشرت في إيران خلال هذا العصر. مثل معاجم الخليل، وابن دُريد، والأزهري، والجوهري، والهروي، والزوزني، والراغب الإصفهاني، وحمزة الإصفهاني، وأبي هلال العسكري، والميداني.

وظهر في إيران شرّاح مشهورون لدواوين الشعراء مثل الواحدي، والزوزني، والتبريزي، كما ظهر النحويون الكبار أمثال ابن درستويه الفارسي، وأبي علي الفارسي، والزمخشري، والرضي الاستراباذي.

ويعتبر عبد القاهر الجرجاني صاحب نظرية هامة في البلاغة لاتزال حتى اليوم موضع اهتمام النقّاد والبلاغيين، والسكاكي في

DOI:10.52113/uj05/023-16/247-259

مفتاح العلوم قدّم مشروعًا لتعليم البلاغة لايزال متداولاً حتى اليوم، وعليه شروح كثيرة.

ويطول الحديث لو تقصينا مجالات النشاط الثقافي في هذا العصر، وهذا الذي ذكرناه يبين جانبًا من هذا التنوع والشمول والتعادل والتوازن في علوم هذا العصر وثقافته.

3- النضج العلمي من مظاهر الثقافة الإسلامية في إيران خلال هذا العصر. لقد غلبت على العصر العبّاسي حركة الترجمة، غير أن هذه الحركة أوشكت أن تتوقف في هذا العصر، بدأ العلماء في التفكير العميق وتقديم الجديد من الأفكار والنظريات في حقول المعرفة. فابن سينا قدّم الجديد في علم الطب مما جعل كتاب القانون عماد الغربيين في دراساتهم الطبية بجامعاتهم حتى القرون القريبة، وقد ترجموه وطبعوه عشرات المرات في القرنين الخامس عشر والسادس عشر الميلاديين، وفي الفلسفة خطا خطوة عظيمة حين وفّق بين آراء أرسطو وأفلاطون والأفلاطونية الحديثة والإسلام وكأنه أراد أن يقدم المشروع الإنساني العام لنظرة الإنسان إلى الكون والحياة، مازجًا بين الجانب العقلي والروح العرفانية أو الصوفية.

والبيروني أيضًا صاحب عقلية جبّارة يقف في كتابه تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة على آراء الهنود واليونان والفرس ويقارن بينها وبين آراء الإسلام مقارنة دقيقة عميقة ويبين وجوه التوافق بينها، وكأنه يبحث عن المشترك الحضاري والاختلاف الثقافي بين شعوب العالم.

جلّ مؤلفات العلماء العظام في هذا العصر ساهمت في تقدّم العلوم ودفعت المسيرة العلمية نحو التطوير. وأقف عند نموذج آخر هو **محمد عبدالكريم الشهرستاني** (ت 548هـ). هذا الرجل الذي عاصر السلطان سنجر السلجوقي يمتاز بموسوعيته وأحاطته في عصره من «ملل» و«نحل»، وكأنه أراد أن ينفتح على كل ثقافات عصره. يستعرض الآراء في كتابه الملل والنحل ثم يناقشها مناقشة جادّة في كتبه الأخرى، ويقدم مشروعًا فكريًا متكاملاً. وحين يرى أن الساحة الفكرية قد أصابها نوع من الجمود بعد ابن سينا، وهي حالة تعتري مسيرة الفكر حين يظهر فيها النوابغ الكبار، يتصدّى لابن سينا يصارعه في كتاب المصارعة بجرأة مستهدفًا كسر الجمود النسبي وكأن استمرار الحركة هو الأساس. يقول: «وإنما يُسبرَ غورُ العقل وتتبيّن قيمة الرجل عند مناجزة الأقران، ومبارزة الشجعان، وبالاختبار تظهر خبيّة الأسرار، وبالامتحان يكرمُ المرءُ أو يهان. وقد وقع الاتفاق على المبرز في علوم الحكمة، وعلامة الدهر في الفلسفة، أبي علي الحسين بن عبد الله بن سينا، فلا يقفوه فيها قاف وإن نقض السواد، ولا يلحقه فيها لاحق وإن ركض الجواد، وأجمعوا على أنّ من وقف على مضمون كلامه وعرف مكنون كلامه فقد فاز بالسهم المعلّى، وبلغ المقصد الأعلى، فعزمت على الاعتراض عليه ردًّا ورميًا، وتعقّب كلامه إبطالاً ونقضًا، فإن ذلك باب ضربت دونه الأسدال وقبضت عليه الحفظة والأرصاد، فأردت أن أصارعه مصارعة الأبطال، وأنازله منازلة الرجال...»[26].

الحركة المستمرة عموديًا وأفقيًا في الثقافة الإسلامية تعبّر عن روح حضارية دفعت بعامّة المجتمع نحو التطوّر والرقيّ، وفي مثل هذه الحالة يبرز عادة النوابغ وكبار العلماء الأفذاذ، ووراء هذه الروح الحضارية. كما أسلفنا. إيمان بِمَثَلٍ أعلى دعت إليه رسالة الإسلام.

4- في القرون الأخيرة

منذ ثلاثة قرون تقريبًا بدأت الثقافة العربية الإسلامية في إيران بالانحسار، وضعفت إلى حدّ كبير حركة الإبداع الحضاري. ويلاحظ. أولاً. أن هذا الانحسار في إيران تزامن مع انحساره في كل العالم العربي، كما أنّ هذا الانحسار ترافق مع خطة الغزو الغربي للعالم الإسلامي، مما يدلُّ بوضوح على وحدة الساحة الحضارية بين الإيرانيين والعرب ووحدة التحديات التي تواجههم.

ومع كلّ ما كان في هذه القرون العجاف من مآسٍ وويلات فإنها أوضَحَت أمورًا على غاية من الأهمية:

الأول: أن الغرب مارس منذ دخوله إلى العالم الإسلامي سياسة تقوم على أساس زعزعة الأمن والهويّة ونزع روح العزّة والكرامة

DOI:10.52113/uj05/023-16/247-259

من أبناء المنطقة الإسلامية. وهذه السياسة بدأت منذ سنة 1600م (1030هـ) حين وقّعت الملكة (اليزابيث الأولى) على وثيقة حصر التجارة الشرقية باسم شركة الهند الشرقية تمهيدًا لغزو الهند. واقترن غزو الهند بالهجوم على إيران ضمن خطّة تستهدف تمزيق الشعب الإيراني مذهبيًا وسياسيًا، وإفقاره إقتصاديًا، وخلق الظروف التي تدفع البلد إلى التخلّف والفساد. ثمّ دفع مجموعة تطلق على نفسها اسم «منوري الفكر» أو من نسميهم اليوم «المثقفين» ليقدّموا علاجًا للإيرانيين يتلخّص بالتنكر للثقافة الإسلامية، والانفصال عن دائرة الحضارة العربية الإسلامية، بل حتى عن الحروف العربية والألفاظ العربيّة.

وكلّ محاولة مخلصة حقيقية لإنقاذ إيران كانت تُقبَر في مهدها عسكريًا أو سياسيًا أو إعلاميًا.

وهذا الموقف الغربي من الثقافة الإسلامية في المنطقة لو قارناه بموقف هذه الثقافة من إيران بعد الفتح، لا تضح لنا أنه كالفرق بين الموت والحياة.. الغرب حاول أن يسحق حركة الأمة على طريق تكاملها الإنساني، والإسلام أحيا الأمة في إيران ودفعها على طريق مشاركة في بناء حضارة إنسانية عالمية.

الثاني: أن الثقافة الإسلامية كانت قد حولت مجموعتنا الحضارية . على ما بينها من تعدديات مذهبية وقومية . إلى قرية صغيرة متواصلة ثقافيا . كما مر بنا . وهي حالة حضارية تفخر بها البشرية اليوم بعد ثورة الاتصالات، بينما فرض الغرب علينا حالة من التجزئة عبر أنواع من الإثارات والصراعات، بدأها بإثارة النزاع الصفوي العثماني وتواصلت عبر تجزئة سايكس بيكو وفتنة الكيان الصهيوني ولا تزال متواصلة حتى اليوم، ولايزال المخططون الاستراتيجيون يقدمون الخطط الرامية إلى تكريس هذه التجزئة. وهذا يعني أن مجموعتنا الثقافية سوف تبقى في تراجع مستمر حتى تتوفر لها ظروف العودة إلى ثقافتها الإسلامية، من هنا فإن التواصل الثقافي العربي . العربي، العربي . الإسلامي، بل الإسلامي . العالمي يساهم إلى حدّ كبير في مواجهة التراجع الثقافي في منطقتنا الإسلامية.

الثالث: أن الثقافة الإسلامية في بلدان الجوار العربي الشرقي واجهت محاولات بريطانية وأمريكية وروسيّة هائلة لفصل هذه البلدان عن هذه الثقافة وعن العرب وعن القضايا العربية الإسلامية، كان منها الإرهاب الفكري والتصفيات الجسدية، وافتعال المذاهب والأحزاب وتدبير الانقلابات، وأهم من ذلك الحرب النفسية لخلق حالة من الهزيمة الداخلية. لكن هذه الثقافة عبّرت عن حيويّتها وعمق تجذّرها في النفوس في إيران وآسيا الوسطى وشبه القارة الهندية وجنوب شرق آسيا، وهذه الحالة تبعث الأمل في نفوس كلّ المهتمين بالثقافة الإسلامية، وتبعدهم عن اليأس حتى في ظروفنا الراهنة التي تواجه فيها هذه الثقافة حربًا شرسة، ولعلّ من المفيد أن نشير هنا إلى الاهتمام الشعبي الأوربي والأمريكي بالثقافة الإسلامية وبمدرسة العرفان الإسلامي في أعقاب اشتداد الهجوم على هذه الثقافة سياسيًا وإعلاميًا، وما ذلك إلا لطبيعتها الفطرية الإنسانية كما ذكرنا.

الهوامش والمصادر:

1- الأيبوردي، الشاعر العربي الأموي المولود في أيبورد في خراسان، شاعر عربي فحل، لكن لغته الأصلية فارسية يقول: «كنت ببغداد عشرين سنة حتى أمرن طبعي على العربية، وبعد، أنا أرتضخ لَكنة أعجمية»، انظر شوقي ضيف، تاريخ الادب العربي القسم 5، ص 600.

2- هو صالح بن عبدالرحمن. أنظر ابن النديم، الفهرست، المقالة السابعة: مقالة الفلاسفة، ص 252 – 253.

3- العصر العباسي الأول، شوقي ضيف/ 113

4- تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي. الدكتور حسن إبراهيم حسن، 320/2.

5- العامل السياسي في أدب العصر العباسي الأول، أحمد الشايب/ ص 35.

6- تاريخ بغداد، ابن طيفور/ ص 87.

7- البيان والتبيين، تحقيق حسن السندوبي، دار الفكر، بيروت، ج 1، ص 378.

DOI:10.52113/uj05/023-16/247-259

8- العصر العباسي الأول، شوقي ضيف/ 92.

9- العصر العباسي الأول، ضيف/ 78.

10- منهم على سبيل المثال ابن قتيبة الدينيوري، انظر كتاب العصر العباسي الثاني، شوقي ضيف ص 613 .

11- الإسلام وإيران/ 306 .

12- ابن المقفع، المقدمة، عبداللطيف حمزة، مكتبة الجامعة، القاهرة 1937.

13- انظر الزنادقة تاريخ وفكر، محمد عبدالحميد الحمد، دار الطليعة الحديدة دمشق 1999.

14- الإسلام وإيران/ ص 308

15- آذرشب الأدب العربي وتاريخه حتى نهاية العصر الأموي، منشورات سمت، طهران، ط 3، ص 179 وما بعدها.

16- فجر الإسلام، ص 77.

17- حسن ابراهيم حسن، تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي، 14/2 وما بعدها.

18- رجع أصحاب أبي مسلم بعد أن تسلموا جوائز المنصور وهم يقولون: «بعنا مولانا بالدراهم» تعبيرًا عن سخطهم على تنازلهم. الطبري 313/9.

19- تاريخ الإسلام السياسي والاقتصادي والديني والثقافي والاجتماعي. مرجع سابق 104/2 وما بعدها.

20- المصدر نفسه 108/2 ومابعدها.

21- انظر الأفشين والمازيار المصدر نفسه 111/2 وما بعدها.

22- الثعالبي يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر 318/3.

23- المصدر نفسه 303/3.

24- شوقي ضيف ، تاريخ الأدب العربي 570/5.

25- انظر: السبكي طبقات الشافعية الكبرى، ففيه صورة شاملة للثقافة الفقهية في خراسان.

26- الشهرستاني، مصارع المصارع/ 5 – 6

The Arab-Iranian brotherhood within the framework of Islamic civilization

Abstract :

Islamic culture is the only one capable of transforming the neighboring countries into a strategic depth for the Arab world and a support for its causes, and to restore identity and the scientific and evolutionary movement to the Islamic world, and keep it away from internal crises and from relapse into trifles and trivialities after setting before it the true ideal and the great human goals. Unless Islamic culture, in its broad sense, regains its presence on the scene, the human being in the Islamic world will remain lost searching for his identity, and this research may be accompanied by a kind of randomness, excessiveness, and negligence if it is not within a well-thought-out, rational, comprehensive, authentic, and contemporary plan. Due to the influence of the enemies of this culture, things get worse, and backwardness is perpetuated, and thus the fabricated reform attempts deepen the tragedy.

Hence, the process of cultural revival and cultural communication in the Arab world and the neighboring Islamic countries is a life process to establish security and peace, to create a kind of balance in the global arena, and to direct humanity towards the interest of “man” in his material and moral life.

DOI:10.52113/uj05/023-16/247-259